

كَلِمَات

Kalimat

العدد العاشر (عربي)، حزيران / يونيو 2002
Number 10 (Arabic), June 2002

ليونورا هاوليت

نَجْمَةٌ مَنَسِيَّةٌ فِي

سَمَاءِ الْكَوْنِ الْعَشَوَائِيِّ

دورية عالمية للكتابة الخلاقة بالإنكليزية والعربية

ISSN 1443-2749

An International Periodical of English and Arabic Creative Writing

كَلِمَات

Kalimat

العدد العاشر (عربي)، حزيران/يونيو 2002

Number 10 (Arabic), June 2002

© Kalimat

ABN 57919750443

نقطة علام 55 رغيد النحاس: ليونورا هاوليت...نجمة منسية هي سماء الكون العشوائي

بريد الشرق 67 من مظفر: رسائل في الحب والحصار والشقات

نحت 73 رافع الناصري: فن النحت العربي المعاصر...مختار وسليم نمونجاً

دراسات 76 محمد عبد الرحمن يونس: فضاء الأسواق والخانات التجارية في مدن ألف ليلة وليلة

قصص 87 إبراهيم نصر الله: الملهاة الفلسطينية، فصل من "زيتون الشوارع"

93 عبد الواحد ستيتو: حرية من نوع آخر

95 سهيل الشعار: الذنب الراكض...في المدينة

قصص مترجمة

97 كنيدي إسطفان (ترجمة رغيد النحاس): وعد

100 بروس باسكو (ترجمة رغيد النحاس): كوة

مواجهة

104 محمد عبد الرحمن يونس: حوار مع المستشرق الصيني شريف شي سي تونغ

محافل الادب

111 خالد الحلي: يستعرض كتاباً لـ عبد الغني الخليلي

نجاة فخري مرسي، حياة جاسم محمد، إبراهيم أحمد،

حسن مطلق، رضا الظاهر، سهيل الشعار، هنادة الحصري،

غسان طعان، حسونة المصباحي، نجمة خليل حبيب، شحادة الخوري،

وفاء خرما، جميل ميلاد الدويهي، كما يستعرض رغيد النحاس كتاباً لـ عبود مسوح

فضاء الأسواق والمخانات التجارية في مدن

ألف ليلة وليلة

تعد الأسواق من أهم الفضاءات المكانية في مدن ألف ليلة وليلة، ويذكرها رواية الليالي في غير حكاية، ويصفون ما يجر فيها من علاقات تجارية وإنسانية. وتبدو فضاءً مثيراً وجذاباً واليافاً بالنسبة لابطال الليالي، باختلاف طبقاتهم الاجتماعية، فهي تشكل فضاءً شاسعاً مفتوحاً على الآخر الاجتماعي بحسب الإنسان وعاداته وأعرافه وقيمه وسلوكه، إذا ما قارناها بفضاءات المقاصير والقصور المحكومة بضوابط سلطوية صارمة، والمخاطبة بالسرية والكتمان، فالأسواق في مدن ألف ليلة وليلة فضاءات جامعة لشرائح اجتماعية متباينة في عاداتها وسلوكها ورؤيتها لما يجري في مدنها، وهي فضاءات أممية - إن صح التعبير - إذ يلتقي فيها الغرباء القادمون من مدن الليالي البعيدة، ويتعارفون فيما بينهم من جهة، ويتعارفون بسكان المدينة التي قدموا إليها، ويعايشونهم من جهة أخرى.

ونظراً لانفتاح المدينة العربية الإسلامية في ألف ليلة وليلة على غيرها من المدن العربية الأخرى وغير العربية، والإسلامية وغير الإسلامية، انفتاحاً معرفياً وثقافياً واقتصادياً، فقد غصت هذه المدن بالجنسيات المختلفة، وشهدت أسواقها حركة تجارية ناشطة، ومارت بالحيوية والحركة، وعبر الناس من خلالها عن آمالهم وأفراحهم وأحزانهم، وما يختمون في سرائرهم، وفرحوا وحزنوا، وتعاركوا، وعربنوا، واصطادوا النساء، وتحايلاوا عليهن، وحصلوا عليهن إماً بالزواج الشرعي، وإماً بالشراء، باعتبار أن الكثير منهن كان يباع علناً في هذه الأسواق بفعل نشاط تجارة الرقيق وازدهارها. وتنتعد الأسواق في ألف ليلة وليلة، وتلتقي جميعها في البيع والشراء والسمسرة والمزايدات العلنية، ويمكن أن نحتدها بـ:

- ١- الأسواق التجارية، وهي موضوع الجزء الحالي من هذه الدراسة.
- ٢- أسواق الجوارى، وهي ما سنتناوله في تنمة الدراسة في عدد قادم.

١- الأسواق التجارية.

نظراً لأن حكايات ألف ليلة وليلة هي حكايات المدينة العربية الإسلامية، وغيرها من المدن الواقعية والمتخيلة، ونظراً لأنها تشكل صورة عن حياة الناس وطموحهم، في حلهم وترحالهم، فقد احتاجت إلى فضاءات مكانية تتسع من خلالها مادتها الحكائية، فلا وجود للحكي إلا من خلال المكان الذي ينمو من خلاله هذا الحكي. وكانت الأسواق التجارية والأرقة والدكاكين في ألف ليلة وليلة فضاءات مهمة يرتحل السرد منها إليها، وتتشكل البنية الحكائية العامة من خلالها.

مملوءة من الذهب والفضة (...) ومضوا إلى سوق العطارين فإذا دكاكينهم مملوءة بأنواع العطريات ونوافح المسك والعنبر والعود والكافور وغير ذلك.^(١٢) إن هذه الأسواق المتخيلة تمثل جزءاً مهماً من أسواق المدن الواقعية التي عرفها رواة الليالي، وشاهدوا ما هو معروض فيها من سلع تجارية، فقد شاهدوها في أسواق دمشق وبغداد والبصرة والقاهرة، وتخيلوا ما في أسواق المدن المتخيلة تأسيساً على ما هو معروض في أسواق مدنهم التي خبروها وعاشوا فيها.

إن السوق في حكايات ألف ليلة وليلة فضاء للمتعة البصرية، وهو مبدّد لحالات الأرق والقلق فإذا أحسّ الأبطال بأنّ صدورهم ضجت بأحزانهم ومواجعهم، فإنهم سرعان ما يخرجون من فضاء منازلهم وقصورهم إلى فضائه ليتحرّروا من أعباء الحياة. ويبدو أنّ مشاهدة الناس، والاندفاع داخل صخب الأسواق و حركتها، والاستمتاع بمنظر جمال نسائها وجواربها وهي تجوب الأسواق، من شأنه أن يسهم في إزالة التوتر النفسي والشعور بالوحدة والضجر. ومن هنا نجد أنّ رواة الليالي يحنّون أبطالهم على الخروج من فضاءات منازلهم إلى فضاءات أسواق مدنهم. ففي حكاية "علي الزبيق ودليلة المحتالة" أحسّ علي الزبيق بالضجر نتيجة مكوّنه في قاعته ببغداد، 'فانقبض قلبه وضاق صدره، فقال لنفسه قم شقّ في بغداد ينشرح صدرك، فخرج وسار من زقاق إلى زقاق فرأى في وسط السوق دكاناً فدخل وتغدى فيه وطلع يغسل يديه.^(١٣) وما إن يعود من أسواق بغداد وأزقتها إلى قاعته، حتى يكون صدره قد انشرح، وامتلأ غبطة بعد لقائه بالمرأة الجميلة زينب بنت دليلة المحتالة التي تؤكّد له أنّها عشقته، وأنّها ستكون للغنود الذي مثله عندما سألها: 'ما أحسن شكلك لمن أنت؟'^(١٤)

ونجد أنّ الراوي في غير حكاية يدفع بطله الخليفة هرون الرشيد للخروج من دائرة قلقه وضجره وفضاءات قصوره إلى أسواق بغداد وأزقتها كي يبدّد قلقه.^(١٥) ويذكر أحد رواة ألف ليلة وليلة أنّ أسواق القاهرة هي الأخرى كانت ملاذاً وطمانينة للذين يخرجون إليها، ويدفع بطله للخروج من دائرة همّه إلى هذه الأسواق قائلاً:^(١٥) 'إن ضاق صدرك فشقّ شقة في مصر، فإنّه يزول عنك الهمّ إذا مشيت في أسواقها.'

ويبدو أنّ أسواق القاهرة - تاريخياً - كانت تُشكل فسحة مريحة لمرتاديهها، فقد كانت عامرة بالحياة والحركة. وعندما زارها الرحالة المغربيّ ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي، ٧٠٤ - ٧٧٩ هـ / ١٣٠٤ - ١٣٧٧م) ذكر أنّ بها

'من السقّانين على الجمال اثني عشر ألف سقّاء، وأنّ بها ثلاثين ألف مكارٍ وأنّ بنيها من المراكب ستّة وثلاثين ألفاً للسلطان، والرعيّة تمرّ صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق، وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة، وهو مكان النزهة والتفرّج، وبه البساتين الكثيرة الحسنة.

وأهل مصر ذوو طرب و سرور ولهو، شاهدت بها مرّة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده فزبن كلّ أهل سوق سوقهم وعلّقوا بحوانيتهم الحلّ والحلّي وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياماً.^(١٦)

(١٢) - ألف ليلة وليلة، ١٤٨/٤.

(١٣) - م ن، ١٤٨/٤.

(١٤) - م ن، ٨٩/١، ١٦٣.

(١٥) - م ن، ١٣٩/٤.

(١٦) - تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر/دار بيروت، بيروت، طبعة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ص ٣٧.

ومن أسواق القاهرة يذكر أحد الرواة سوق وردان الذي يبيع اللحوم.^(١٧) وسوق قيصريّة جرجس الذي يبيع الأقمشة.^(١٨)

ولم تكن أسواق القاهرة في ألف ليلة وليلة فضاءات للمنتعة البصريّة فحسب، بل كانت فضاءات لمتنع حسيّة أخرى، ومنها متعة تعاطي الحشيش. ففي أسواق القاهرة يستطيع الأبطال أن يتعاطوا الحشيش والأفيون بحريّة، ومن دون رقابة تُذكر، ومن دون أن يتعرّضوا لآيّة عقوبات. يقول أحد الرواة:^(١٩) 'وكان في السوق [سوق القاهرة] نقيب الدّالّين وكان رجلاً حشاشاً يتعاطى الأفيون ويستعمل الحشيش الأخضر'. وفي هذا السوق كان مُباحاً لدكاكين العطارين أن تبيع الحشيش، ويُسمّى الراوي أصحاب هذه الدكاكين ببائعي الحشيش، إذ يذكر أن نقيب الدّالّين 'توجّه إلى بيّاع الحشيش،^(٢٠) ليشتري منه ما يشاء.

ويبدو أن تعاطي الحشيش والأفيون - كما يعتقد بعض رواة الليالي - له وظيفة مهمّة بالنسبة للأبطال، لأنّه قادر على إثارة الطاقات الجنسيّة وتحريضها.^(٢١) وبشكل عام لعبت التوابل وأنواع البخور والعمّور في التاريخ دوراً واضحاً في تفجير الإثارة الجنسيّة، مثلها مثل الحشيش فقد كانت تُباع في دكاكين العطارين مع الحشيش، وقد امتلأت أسواق دمشق وبغداد والقاهرة والإسكندرية وصنعا بحوانيت العطارين الذين تأتت بهم أنواع التوابل والعمّور والأصباغ والحشائش الطبيّة التي بلغت ستّة وثلاثين صنفاً،^(٢٢) من جنوب شرق آسيا والهند،^(٢٣) وتأتي التوابل والبخور والعمّور على رأس قائمة السلع المطلوبة في العصور الوسطى، بل إنّ شدّة الطلب عليها حرك أساطيل وأقام حروباً للبحث عن مصادرها التي صيغت من حولها الأساطير والحكايات الخرافيّة. وقد بلغ الأمر بأن قيل إنّ التوابل التي بأسواق مصر تأتيها من الفردوس الأرضي، وإنّ الناس تحصل عليها عند ارتفاع مياه النيل إلى سطح الأرض، حيث يمدّ الصيادون شباكهم بعرض النهر في المساء، فإذا ما أقبل الفجر ضمّوا شباكهم إليهم وما أكثر ما يجدون فيها من الفلفل و القرفة والزنجبيل وإلى ذلك من صنوف التوابل، وغير ذلك أقوال كثيرة سُجّت عن التوابل وكلّها بعيدة عن الحقيقة.^(٢٤)

إنّ من يقرأ ألف ليلة وليلة سيلاحظ أنّ العطارين أصبحوا خبراء في فنّ الجنس والإثارة، فقد كانوا يُركّبون وصفات طبيّة من التوابل، من شأنها أن تُقوّي قدراتهم الجنسيّة. ففي حكاية "علاء الدين أبي الشامات" يتزوّج التاجر المصريّ شمس الدين - شاه بندر التجار - بإحدى النساء، ويظلّ معها أربعين عاماً، لكنّه لا ينجب منها أيّ مولود،^(٢٥) وعند ذلك يستشير أحد معاونيه، فيقترح عليه أن يذهب إلى

(١٧) - ألف ليلة وليلة، ٨٥/٣.

(١٨) - م ن، ١٣٠/١.

(١٩) - م ن، ٣٤٨/٢.

(٢٠) - م ن، ٣٤٨/٢.

(٢١) - لا يزال هذا الاعتقاد سائداً حتى الآن عند بعض الناس في المدن العربيّة المعاصرة، ومنها القاهرة ومراكش والدار البيضاء.

(٢٢) - عثمان، د. شوقي عبد القوي: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلاميّة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٥١، ذو الحجّة ١٤١٠هـ/تموز (يوليو)، ١٩٩٠م، ص ٢٠٨.

(٢٣) - م ن، ص ٢٠٧.

(٢٤) - عثمان، د. شوقي عبد القوي: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلاميّة، ص ٢١٤.

(٢٥) - ألف ليلة وليلة، ٣٤٧/٢٢.

العطار بياع الحشيش، وفي مخزن العطار يقوم العطار بإعداد الوصفة الأنثية: 'أخذ من السكر المكرر الرومي والفلفل الأبيض والسقنمور الجبلي، وبقّ الجميع وغلاهم في الزيت الطيب (...). وأخذ مقدار قدح من الحبة السوداء، ونقعه، وعمل جميع ذلك معجوناً بعسل النحل'.^(٣١) ويزعم راوي الحكاية أنّ التاجر شمس الدين، تناول هذه الوصفة، وواقع زوجته، فسرعان ما 'علقت منه تلك الليلة'،^(٣٢) بفعل هذه الوصفة.

لقد أضفت روائح النوايل والحناء والكحل ومواد الزينة والعطور، والفسق والبنق والقرفة وغيرها، على فضاء دكاكين العطارين هالة مُشبعة بالإحياءات والدلالات الجنسية التي من شأنها أن تُحرّض الطاقات الجنسية لدى الذكر والأنثى، والتي يمكن اعتبارها من مجمل المثيرات الخارجية^(٣٣) التحريضية للفعل الجنسي.

إذا كانت أسواق المدينة الإسلامية في ألف ليلة وليلة قد عرفت نوعاً من التجانس في نوعية البضائع المعروضة فيها من خلال التقسيمات والتسميات التي سُميت بها هذه الأسواق: (سوق الجلود، سوق الأقمشة، سوق العلافين... الخ)، فإنها لم تكتف بهذا التنظيم في عرض السلع، وحصرتها في أماكن محدّدة لها ضمن السوق التجاري المركزي في المدينة، بل شهدت تنظيمات أخرى في ضبط عمليات البيع والشراء وتنظيم السوق. إذ تثبت نصوص ألف ليلة وليلة أنّ سلطات مدن الليالي كانت تُعيّن تاجراً من بين التجار ليكون مسؤولاً عن حركة السوق، وتنظيمه، والفصل في المنازعات التي قد تحدث بين تجاره. وكان يُطلق على هذا المسؤول "شاه بندر التجار".^(٣٤) وكان السوق التجاري المركزي يُقسم إلى أسواق فرعية ذات وحدات تنظيمية، تضم كل وحدة منها مجموعة من الحرفيين، أو المهنيين ذوي المهنة الواحدة، وكان على رأس هذه المهنة مسؤولاً يقوم على رعاية مصالح أفراد هذه المهنة، ويُنظّم ويضبط علاقاتهم المهنية، وتُطلق نصوص الليالي عليه "عريف السوق" أو "شيخ السوق"،^(٣٥) أو "نقيب الدلائين"^(٣٦) بتسمية أخرى، وهناك عريف الوقادين،^(٣٧) وهناك "شيخ السقائين"،^(٣٨) وهناك "شيخ الدلائين"،^(٣٩) أو "نقيب الدلائين"^(٤٠) بتسمية أخرى، وهناك عريف الوقادين،^(٤١) وكان على رؤساء هذه المهن أن يمتثلوا جميعاً لسلطة رجل أشدّ ثراءً منهم، وأكثر ارتباطاً بسلطة الدولة، وهو "شاه بندر التجار". ويبدو أنّه كان له "شاه بندر التجار" نائب تاجر يعاونه في إدارة السوق، أو ينوب عنه، ويُسمّى: "نقيب السوق"، كما تشير حكاية "علاء الدين أبي الشامات". ومن مظاهر سلطة "شاه بندر التجار" وخضوع التجار لهيبته،

(٣١) - م ن، ٢/٣٤٨.

(٣٢) - م ن، ٢/٣٤٩.

(٣٣) - استعير مصطلح المثير الخارجي من: فرويد، سيجمند: ما فوق مبدأ اللذة، ترجمة د. إسحق رمزي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٦٦م، ص ٥٥.

(٣٤) - ألف ليلة وليلة، ٢/٣٥٢.

(٣٥) - ألف ليلة وليلة، ١/٢٣٨.

(٣٦) - م ن، ٢/٣٤٨.

(٣٧) - م ن، ٤/١٤١.

(٣٨) - م ن، ١/١٣٠.

(٣٩) - م ن، ٢/٣٤٨.

(٤٠) - م ن، ٢/٧٩.

تَهِمُ كَانُوا جَمِيعاً يَتَّقَمُونَ إِلَيْهِ صَبَاحَ كُلِّ يَوْمٍ لِيَسَلَمُوا عَلَيْهِ، وَيَقْرَأُوا الْفَاتِحَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ. يَقُولُ الرَّوَايُ: (٣٦) وَكَانَ مِنْ عَادَةِ شَاهِ بَنْدَرِ التِّجَارِ أَنَّهُ لَمَّا يَأْتِي مِنْ بَيْتِهِ فِي الصَّبَاحِ وَيَقْعُدُ فِي دُكَّانِهِ يَتَّقَمُ نَقِيبَ السُّوقِ وَيَقْرَأُ الْفَاتِحَةَ، فَيَقُومُونَ مَعَهُ وَيَأْتُونَ شَاهَ بَنْدَرِ التِّجَارِ وَيَقْرَأُونَ الْفَاتِحَةَ وَيَصْبِحُونَ عَلَيْهِ. وَيَبْدُو أَنَّ مِنْ يَتَّبِعُونَ مَنَاصِبَ "شَاهِ بَنْدَرِ التِّجَارِ"، يَجِبُ أَنْ يَتَمَتَّعَ بِمَزَايَا عَامَّةٍ مِنْهَا: أَنْ يَكُونَ أَثَرَى التِّجَارِ، وَيَمْلِكُ مَالاً كَثِيراً لَا يُحْصَى، (٣٧) وَأَنْ يَكُونَ مِنْ أَحْسَنِ التِّجَارِ وَأَصْدَقَهُمْ مَقَالاً، (٣٨) وَأَنْ يَكُونَ حَسَنَ السَّيْرَةِ وَالْأَخْلَاقِ، غَيْرَ مُتَهَنِّكٍ فِي حَيَاتِهِ الْجَنَسِيَّةِ، وَغَيْرَ مُوضِعِ شَكٍّ، وَبِخَاصَّةٍ فِي عِلَاقَاتِهِ مَعَ غُلَّامَانِ سَوَقِهِ وَحِيَّةٍ. فِي حِكَايَةِ "عَلَاءِ الدِّينِ أَبِي الشَّامَاتِ"، يَشَاهِدُ التِّجَارِ ذَاتَ يَوْمٍ شَيْخَهُمْ "شَاهَ بَنْدَرِ التِّجَارِ"، وَبِصَحْبَتِهِ غُلَّامٌ جَمِيلٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ الْقَمَرُ فِي لَيْلَةٍ أَرْبَعَةَ عَشَرَ، (٣٩) فَسَرَعَانَ مَا يَظُنُّونَ بِهِ سَوْءاً، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْعِلَاقَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَذَا الْغُلَّامِ الْجَمِيلِ تَقُومُ عَلَى مَارَبِ جَنَسِيَّةٍ، فَيَسْتَنْكِرُونَ ذَلِكَ، وَبِقَرَارِهِمْ يَخْلَعُهُ مِنْ مَشِيخَةِ السُّوقِ. يَقُولُ أَحَدُ التِّجَارِ: (٤٠) 'انظُرْ إِلَى هَذَا الْغُلَّامِ الَّذِي وَرَاءَ شَاهِ بَنْدَرِ التِّجَارِ وَقَدْ كُنَّا نَظُنُّ بِهِ الْخَيْرَ، وَهُوَ مِثْلُ الْكِرَاثِ شَائِبٍ وَقَلْبُهُ أَخْضَرُ فَقَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ سَمْسَمُ النَّقِيبِ (...): نَحْنُ مَا بَقِينَا نَرْضَى بِهِ أَنْ يَكُونَ شَيْخاً عَلَيْنَا أَبَداً.' وَيَتَابِعُ الرَّوَايُ قَائِلاً: (٤١) 'فَلَمَّا قَعَدَ شَاهُ بَنْدَرِ التِّجَارِ فِي دُكَّانِهِ نَظَرَ إِلَى الْيَوْمِ عَلَى عَادَتِهِ لَمْ تَأْتِ إِلَيْهِ التِّجَارُ حَسَبَ عَادَتِهِمْ، فَهَادَى النَّقِيبُ وَقَالَ لَهُ: لِمَاذَا لَمْ تَجْتَمِعِ التِّجَارُ عَلَى جَرِي عَادَتِهِمْ؟ فَقَالَ لَهُ: (...): إِنَّ التِّجَارَ انْتَفَقُوا عَلَى عَزْلِكَ مِنَ الْمَشِيخَةِ وَلَا يَقْرَأُونَ لَكَ فَاتِحَةً. فَقَالَ: مَا سَبَبُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ لَهُ: مَا شَأْنُ هَذَا الْوَلَدِ الْجَالِسِ بِجَانِبِكَ وَأَنْتَ شَيْخٌ وَرَبِيسُ التِّجَارِ، فَهَلْ هَذَا الْوَلَدُ مَمْلُوكٌ أَوْ يَقْرَبُ لِرُؤُوسِكَ؟ وَ أَظُنُّ أَنَّكَ تَعْشَقُهُ.' لَكِنَّ الرَّوَايَ الْمُؤَدِّجَ إِسْلَامِيّاً، وَالْمُنْتَاطِفَ مَعَ بَطْلِهِ التَّاجِرِ الْمُسْلِمِ - وَلَكِي يَتَوَالَى السَّرْدُ فِي مَا بَعْدَ خَادِمِ الْبِنْيَةِ الْعَامَّةِ لِلْحِكَايَةِ - يَرْفُضُ أَنْ يَلِصِقَ هَذِهِ التَّهْمَةَ عَلَيْهِ، وَيُؤَكِّدُ نَزَاهَتَهُ وَسَيْرَتَهُ الْحَمِيدَةَ قَائِلاً: (٤٢) 'اسْكُتْ قَبِّحَ اللَّهُ ذَانِكَ وَصَفَانِكَ هَذَا وَلَدِي.'

إِنَّ شَاهَ بَنْدَرِ التِّجَارِ رَجُلٌ مُسْلِمٌ يُؤَدِّي وَاجِبَاتِهِ الدِّينِيَّةَ، (٤٣) وَيَغْرَسُ فِي ابْنِهِ تَعَالِيمَ الْقُرْآنِ، إِذْ يُعَلِّمُهُ الْخَطَّ وَالْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ، (٤٤) وَبِالنَّتَالِي فَإِنَّ الرَّوَايَ الْمُسْلِمَ الَّذِي يَطْمَحُ فِي أَنْ يَكُونَ فِي مَوْجِعِ بَطْلِهِ النَّاجِرِ الْمُسْلِمِ، وَالَّذِي يَضَعُ الْقَارِيَّ مِنْذُ بَدَايَةِ الْحِكَايَةِ أَمَامَ شَيْخٍ لِلتِّجَارِ، مُسْتَقِيمَ أَخْلَاقِيّاً، لَا يُمْكِنُ لَهُ إِلَّا أَنْ يَدَافِعَ عَنِ هَذَا الْبَطْلِ، لِأَنَّ مَنْطِقَ السَّرْدِ الْحِكَايِيِّ يَقْتَضِي أَنْ يَظَلَّ هَذَا الْبَطْلُ نَظِيفاً إِلَى آخِرِ الْحِكَايَةِ، وَبِخَاصَّةٍ إِذَا عَرَفْنَا أَنَّ هَذَا الرَّوَايَ يَدِينُ الشَّدُودَ الْجَنَسِيَّ بِشَدَّةٍ فِي مَوَاضِعٍ لَاحِقَةٍ مِنَ الْحِكَايَةِ. (٤٥)

وَتَشِيرُ حِكَايَاتُ أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ إِلَى أَنَّ فِضَاءَ السُّوقِ كَانَ مُحَصَّنَاً ضَدَّ اللَّصُوصِ، فَقَدَ عَمَدَتِ سُلْطَاتِ الْمَدِينَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى مَعَاقِبَةٍ مِنْ يَجْتَرِي عَلَى سَرَقَةِ تِجَارِهِ وَالنَّاسِ الْمُتَجَوِّلِينَ فِيهِ. وَكَانَ وِلَاةُ هَذِهِ الْعَدَنِ مُتَشَدِّدِينَ فِي مَعَاقِبَةٍ مِنْ يَسْرِقُ، وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَالضَّعْفَاءِ وَالْبُؤْسَاءِ، فِي حِكَايَةِ

(٣٦) - م ن، ٣٥٢/٢.

(٣٧) - م ن، ٣٥١/٢.

(٣٨) - م ن، ٣٤٧/٢.

(٣٩) - م ن، ٣٥٢/٢.

(٤٠) - ألف ليلة وليلة، ٣٥٢/٢.

(٤١) - م ن، ٣٥٢/٢.

(٤٢) - م ن، ٣٥٢/٢.

(٤٣) - م ن، ٣٤٧/٢.

(٤٤) - م ن، ٣٥٠/٢.

(٤٥) - م ن، ٣٥٧/٢، ٣٦٠.

"النصراني لملك الصين"، يدخل أحد شخوص الحكاية سوق "باب زويلة" بحى "بين القصرين" في القاهرة، وبيسّ يده في جيب أحد المارة - نظراً لحاجته الماسة إلى المال - فسرعان ما يقبض عليه رواد السوق، ويقدّمونه إلى والي المدينة، فيأمر السيّاف بقطع يده اليمنى.^(٤٦) وفي حكاية "اليهودي لملك الصين"، يتوجّه أحد شخصيات الحكاية إلى سوق الجواهر بدمشق ليبيع عقداً مسروقاً، فيشكّ الدلال بأن حامل هذا العقد قد سرقه، فيتوجّه إلى كبير السوق، ويُعلمه بذلك. وأمام سياط تعذيب الظلمة - على حدّ تعبير الراوي - يعترف أنّه سرق العقد، فما كان من هؤلاء الظلمة إلا أن قطعوا يده جزاء سرقته.^(٤٧)

وتشير حكاية "السندباد البحري" إلى أنّ إحدى مدن ألف ليلة وليلة كانت 'مدينة عظيمة المنظر مليحة البناء، فيها خلق كثيرون'^(٤٨) - لا يذكر الراوي اسماً لها - وكانت تشهد في أسواقها التجارية نوعاً من نظام البيع وفق المزايدات العلنية التي تشبه إلى حدّ ما المزايدات التي لا تزال تجري في غير مدينة من مدننا العربية المعاصرة. يقول السندباد: 'ورأيت الدلال يُدلّل عليه، [أي زورق السندباد المصنوع من خشب الصنل] فجاء التجار وفتحوا باب سعره وتزايدوا فيه إلى أن بلغ ثمنه ألف دينار. وبعد ذلك توقّف التجار عن الزيادة. فالتفت إليّ الشيخ وقال: اسمع يا ولدي هذا سعر بضاعتك في مثل هذه الأيام فهل تبيعها بهذا السعر أو تنصير؟'

إذا كان السوق ذا وظيفة تجارية مهمّة في حياة سكان مدن ألف ليلة و ليلة، فإنّ له وظيفة اجتماعية، إذ يلتقي الناس فيه، ويقيمون من خلاله نوعاً من الألفة والمحبة، فهو فضاء للقاء الرجال بالنساء، وبالتالي هو يُوصل إلى غاية جنسية بعد هذا اللقاء، إذ يلتقي الرجال بالجواري والنساء الجميلات في فضاء الحوانيت التجارية، وهناك تُعقد صفقات الحبّ والجنس. ففي حكاية "الصعيدي مع المرأة الإفرنجية"، يلتقي بطل الحكاية بإحدى نساء الإفرنج الجميلات في سوق الكتان بمدينة عكا، ويغازلها، ثمّ يدعوها إلى منزله، فتستجيب لدعوته. يقول الصعيدي: 'فبينما أنا أبيع إذ مرّت امرأة إفرنجية، وعادة نساء الإفرنج أن تمشي في السوق بلا نقاب، فأنت لتشتري منّي كتاناً فرأيت من جمالها ما بهر عقلي. وبغريها بالمال، ويعطي للعجوز التي ترافقها خمسين ديناراً، فنقول العجوز له: (٤٩) 'هيّن لها موضعاً في بيتك وهي تجيء إليك في هذه الليلة.' ثمّ قال: 'فمضيت و جهّزت ما قدرت عليه من مأكّل ومشرب وشمع وحلوى، وكانت داريّ مطلّة على البحر وكان ذلك في زمن الصيف ففرشت على سطح الدار وجاءت الإفرنجية فأكلنا وشربنا وجنّ الليل.'

وتشير حكاية "النصراني لملك الصين" إلى أنّ أحد الأبطال البغداديين تعرّف على امرأة مصرية جميلة في سوق "فيصرية جرجس" لبيع الأقمشة،^(٥٠) فسرعان ما عشقها، لأنّها سلبت عقله بحسنها وجمالها، وتمكّن حبّها من قلبه.^(٥١) فما كان منها إلا أن عشقته هي الأخرى، ودعته إلى منزلها الجميل

(٤٦) - م ن، ١٣٥/١ - ١٣٦.

(٤٧) - ألف ليلة وليلة، ٤٨/١. مع ملاحظة أنّ يد هذا الشخص قُطعت ظلماً، كما يُفهم من خلال السياق العام للحكاية.

(٤٨) - م ن، ١٧/٤.

(٤٩) - م ن، ١٩/٤.

(٥٠) - م ن، ٤٣٣/٤.

(٥١) - م ن، ٤٣٣/٤.

(٥٢) - ألف ليلة وليلة، ١٣١/١.

(٥٣) - م ن، ١٣١/١.

في "الحكاية"، وهناك أقاما طقموس الجنس. يقول البغدادي^(١٠٠) "فلما دخلت وجلست، لم اشعر إلا و
لمسيت أقبيلت وعليها تاج مكلل بالدرّ والجوهر، فلما رايتني تبسّمت وخصنتني ووضعنتي على صدرها،
ومسحت فمها على فمي وجعلت تمصّر لساني وأنا كذلك".

ولشغل الأرقعة المنفرعة من الأسواق، في نصوص الليالي، مادة حكاية ثرة ينمو من خلالها السرد
المكاني وينشعب، فالرقاق ينحني ويدور، ويدخل مناطق بعيدة، وتبرز منه امرأة جميلة، وتنتظر إلى رجل
وسيم وعمره، فيستجيب لها، فتدعو نفسها إلى داره، وهناك في الدار لعباً وشراباً وانشراحاً^(١٠١) ثم
تكون هذه الدار في ما بعد مَحْفَراً حكاياً يسهم في نشعب الحكاية وحبكها، وصولاً إلى ثروتها، ثم فلتها
لما ملك المدينة.^(١٠٢)

ويكشف الرقاق أحياناً عن وجه المرأة المستبدّ الغارق في الفساد والرذيلة، فعندما تغضب إحدى
النساء السلطويات على زوجها الثري، تذهب إلى الرقاق لتبحث عن أقدر رجل لتمارس معه فعل الرضى
لتقاً من زوجها.^(١٠٣)

ويوقف السرد طويلاً عند دكاكين الأسواق في حكايات الليالي، ومن ثمّ ليتابع نسجه للبنية الحكائية
النامية. ففي حكاية "علي الزبيق المصري ودليلة المحتالة" تتردّد نليلة المحتالة وابنتها زينب
النصّابة على دكاكين أسواق بغداد. وتبدو هذه الدكاكين حواضر مهمة جداً لنمو السرد الحكائي، إذ تقوم
نليلة وابنتها زينب بحيك الحيل الماهرة جداً على أصحاب هذه الدكاكين.^(١٠٤) ويلاحظ أنه لولا توقف
السرد الحكائي أمام هذه الدكاكين لما انتهت الحكاية إلى قصر هرون الرشيد ببغداد، ولما فكّنت عقدة
الحكاية بتحقيق منطوق التصالح بين أبطال الحكاية، وذلك بزواج علي الزبيق المصري بزينب النصّابة،
واسلم قصر بنت عزرا اليهودي بين يدي الخليفة هرون الرشيد، وزواجها بعلي الزبيق المصري،
وتخصيص الخليفة قاعة فخمة لصبيان الذين قدموا من مصر إلى بغداد.^(١٠٥)

ومن خلال ارتحال السرد الحكائي في الحكاية السابقة بين أسواق بغداد ودكاكينها، تبدو مدينة بغداد
النامية فضاء جامعاً لنماذج شخصيات عديدة بطباعها وسلوكها، سواء كانت هذه الشخصيات خيرة
أم شريفة. ولا ينس رأوي الحكاية من خلال وصف الدكاكين والأسواق أن يُحمّل السرد الحكائي ببغداد
إيديولوجية تدين النظام السياسي والطبقي في بغداد، القائم في إحدى بنياته على الحيلة والتجنس،
والمعامرة الجريئة الشريرة المدمرة لقوانين المجتمع وأخلاقياته، وتدين الخروقات الكثيرة في
مبكته السياسية من قبل نساء محتالات عواهر، وشطّار فاسدين؛ عجز النظام السياسي عن مكافحة
جرالمهم، فقربهم إليه، وأغنى عليهم درءاً لشرورهم وعيبتهم بأمن المدينة، ومكايدهم التي قد تعصف
ببنية الداخلية.^(١٠٦)

إن السوق بانفتاحه على عالم التجارة والسمسرة والتجار مختلفي الجنسيات، يظلّ من أهمّ
الفضاءات المكانية في ألف ليلة وليلة، التي يلتقي فيها الرجال بالنساء. ومن هذا الفضاء المفتوح

^(١٠٠) - م، ن، ١٠٠/١٣٢.

^(١٠١) - م، ن، ٢٠٠/٢١٤.

^(١٠٢) - م، ن، ٢٠٠/٢١٧.

^(١٠٣) - م، ن، ٢٠٠/٤٣٣.

^(١٠٤) - لمزيد من الاطلاع ينظر: م، ن، ٤/ من ص ١١٧ حتى ص ١١١.

^(١٠٥) - ألف ليلة وليلة، ١٧٦/٤ - ١٧٧.

^(١٠٦) - م، ن، ٤/١٧٨.

Kalimat 10

يسهل على الرجل أن يأخذ المرأة إلى فضاء المنازل المغلقة حيث يتحقق التواصل الجنسي، وبسهل على المرأة أيضاً أن توقع الرجال في شركا فتنتها، وتقودهم صاغرين - بفعل شكلها الجمالي المثير - إلى دارها.

ويشير السرد الحكائي إلى أن معظم العلاقات الجنسية المحرمة أو الشرعية، تبتدى بتشكيل نواتها الأولى بدءاً من فضاء السوق، فما إن تخرج الجميلة من القصر أو المنزل إلى السوق، حتى يلقي التجار الأثرياء والأبطال المغامرون شباكهم عليها. فعلي بن بكار التقى بشمس النهار في دكان صديقه أبي الحسن في أحد أسواق بغداد، وما إن شاهدها حتى بدأ بمغازلتها: 'فلما وصلوا إلى دكان أبي الحسن، نزلت عن البغلة وجلست في دكانه، فسلمت عليه وسلم عليها، فلما رآها علي بن بكار سلبت عقله، وأراد القيام فقالت له: اجلس مكانك كيف تذهب وقد حضرنا. فقال: والله يا سيدي إنني هارب مما رأيت، وما أحسن قول الشاعر:

هي الشمس مسكنها في السماء
فلن تستطيع إليها الصعودا
فعرّ الضؤاد عزاءً جميلاً
ولن تستطيع إليك النزولاً^(١١)

وما إن تسمع شمس النهار ما قاله علي بن بكار، حتى تتحایل وتدعوه وصديقه أبا الحسن إلى مقصورتها الجميلة بقصر الخليفة هرون الرشيد. وهناك في المقصورة تناديه وتقبله وتعانقه.^(١٢)

وفي حكاية "هرون الرشيد مع محمد بن علي الجوهري"، يلاحظ أن السيدة الثرية الجميلة دنيا البرمكي تخرج من دارها قاصدة سوق الجواهر ببغداد لتشتري عقد جوهر، وهناك تلتقي بمحمد بن علي الجوهري. يقول الجوهري: ^(١٣) 'فاتفق في بعض الأيام أنني كنت جالساً في دكاني وحولي الخدم والحشم، وإذا بجارية قد أقبلت راكبة على بغلة وفي خدمتها ثلاث جوار كأنهن الأقمار، فلما قربت مني نزلت على دكاني وجلست عندي، وقالت لي: هل أنت محمد الجوهري؟ فقلت لها: نعم أنا هو مملوكك وعبيدك فقالت: هل عنك جوهر يصلح لي؟' وسرعان ما تعشقه وتدعوه إلى دارها لكي يقبض ثمن العقد. وفي الدار تميل عليه ويميل عليها، وتقبله ويقبلها، وإلى جهتها تجذبه، وعلى صدرها ترميه، وتنزع ما عليها من الثياب، ويخلو بها خلوة الأحباب، ويجدها درة لم تُثقب و مهرة لم تُركب، بمفردات راوي الحكاية.^(١٤) إن للسوق - بالإضافة إلى وظائفه التجارية والاجتماعية، و قدرته على أن يكون فضاء للصورة الجنسية - وظيفة أخرى مهمة، وهي العقوبة والردع، أي التجريس والفضيحة لمن يخرق أعراف المدن وقوانينها، وأنظمة السلطة فيها. وتستخدم سلطات ألف ليلة وليلة الأسواق لفرض سطوتها على مواطنيها، وزرع الخوف في نفوسهم، حتى يرتدعوا عن ارتكاب الجرائم من جهة، وحتى تأمن شرورهم من جهة أخرى. فمن يسرق تُقطع يده في السوق أمام مرأى الناس ليكون عبرة لغيره: 'فأمر خالد [خالد بن عبد الله القسري أمير البصرة] بحبسه وأمر بمنادٍ ينادي بالبصرة: إلى كل من أحب أن ينظر إلى عقوبة فلان اللص وقطع يده، فليحضر من الغداة إلى المحلّ الفلاني.'^(١٥)

(١١) - م ن، ١٨٣/٢.

(١٢) - الف ليلة وليلة، ١٨٥/٢.

(١٣) - م ن، ٤٣٤/٢.

(١٤) - م ن، ٤٣٦/٢ - ٤٣٧.

(١٥) - م ن، ٥/٢.

ومن تشكّ السلطنة بخيانتها لها وعدم ولائها، يُششق في السوق، حتى يرتدع المتآمرون والمارقون على نظامها. يقول الخليفة الرشيد لعلاء الدين أبي الشامات الذي كان من أقرب المقربين إليه: 'يا خائن ينادي عليه: هذا جزاء وأقلّ من جزاء من يخون الخلفاء الراشدين. فاجتمع الخلائق عند المشنقة'.^(١٦٤) ومن يحاول التطلّع إلى نساء غيره، فإنّه يُفضح ويُجرّس في السوق: 'فضربه بالسياط [أي الوالي] وأركبه جملاً ودار به في شوارع المدينة والناس ينادون عليه: هذا جزاء من يهجم على حريم الناس'.^(١٦٥)

وتجربتهم. ففي حكاية "المزّين لملك الصين" تريد إحدى النساء السلطويات الجميلات العبت بمشاعر أحد الرجال البسطاء المحرومين جنسياً والسخرية منه، فتدعوه إلى منزلها، وتغازله، وتغريه بجمال جسدها، وتقتنعه بأن يحلق لحيته حتى لا يبقى في وجهه شعر يؤدي وجهها الجميل، وتثيره حتى يتعرّى من ملابسه، وتطلب منه أن يرقص عارياً حتى يكتمل طقس مسرّاتها. ويرقص الرجل عارياً طمعاً بوصالها،^(١٦٦) لكنّها تسخر منه، وتحتال عليه و تقذفه وسط سوق الجلّادين ببغداد. يقول الراوي:^(١٦٧)

'فقال الجارية لآخي: قم الآن واجر ورائي وأجري أنا قدّامك، وإذا أردت شيئاً فاتبعني، فجرت قدّامه وتبعها ثم جعلت تدخل من محلّ إلى محلّ آخر وأخي وراءها، وقد غلب عليه الشيق كأنه مجنون. ولم تزل تجري قدّامه وهو يجري وراءها. فبينما هو كذلك إذ رأى نفسه وسط زقاق ونلك الرقاق في سوق الجلّادين وهم ينادون على الجلود، فراه الناس على تلك الحالة وهو عريان مخلوق النقرن و الحواجب والشوارب محمراً الوجه، فصاحوا عليه وصاروا يضحكون ويقهقهون وصار بعضهم يصفعه بالجلود وهو عريان حتى غشي عليه، وحملوه على حمار حتى أوصلوه إلى الوالي، فقال: ما هذا، قالوا: هذا وقع لنا من بيت الوزير وهو على هذه الحالة فضربه الوالي مائة سوط.'

يكشف المقطع السابق عن مدى الهوة العميقة بين طبقتين من طبقات المجتمع العباسي: طبقة السلطنة التي تعيش أعلى درجات البطر والاستبداد، وطبقة الشعب التي تعيش مهمشة ومحرومة من كلّ المتع. طبقة السلطنة لا تكمل طقوس ملدّاتها إلا باحتقار أفراد الشعب البسطاء، والسخرية منهم، وإهانتهم. وعلى الرغم من أنّه سبق لبعض هؤلاء البسطاء وعي مدى الفروقات بينهم وبين أفراد السلطنة، وحاولوا الابتعاد عنهم، قانعين بطروفهم المأساوية، وبما أعطاهم ربّهم، إلا أنّ هذه الطبقة السلطوية لم تنشأ أن تتركهم وحالهم في صراعهم المرير من أجل كسب لقمة عيشهم، بل بدالها أنّهم يمكن أن يشكّلوا أدوات ترفهية مهمة تُسهم في زيادة بطرها وسعادتها وغرورها. فالرجل الفقير المُحتال عليه كان خارجاً إلى السوق، مثله مثل جميع بؤساء بغداد، لقضاء حاجاته، ولم يكن يأمل في أن يقضي ليلة عامرة بالملدّات مع إحدى النساء الجميلات، لأنّه يعي استحالة أن تتحقّق أمنيته في مجتمع حرمه من أسباب الملدّات والعيش الكريم، وفجأة يجد نفسه أمام عجوز تقول له: 'ما قولك في دار حسنة ماؤها يجري، وفاكهة ومدام ووجه ملبح تنشاهده وخذ أسيل تُقبّله وقد رشيق تعانقه وتظنّ كذلك من العشاء إلى الصباح؟' فكيف له أن يرفض هذا العرض المغري، وهو المحروم دائماً من جميع

^(١٦٤) - ألف ليلة وليلة، ٢/٢٨٢.

^(١٦٥) - م ن، ١/١٦٢.

^(١٦٦) - م ن، ١/١٦٤.

^(١٦٧) - م ن، م ن، ١/١٦٥.

^(١٦٨) - ألف ليلة وليلة، ١/١٦٢.

Kalimat 10

مكوّناته المثيرة والمغرية؟ لقد جاشت في أعماقه جميع رغباته المكبوتة، وانفلت عقالها، فببت جياداً جامحة، وكيف له أن يكبح جموحها؟ وكيف له أن يعرف أنه أمام امرأة محتالة؟ إن حياته البسيطة المغمّسة بالقهر والحرمان لم تعطه الخبرات الكافية لأن يفهم قدرات نساء مجتمعه الثريات الجميلات على المكيدة والاحتتيال، فهو لم يعاشرهنّ مسبقاً، ولذا لا يمكنه أن يعرف ما يدور في أذهانهنّ. و من هنا فقد كان صيداً سهلاً لأربع نساء بطرات عابثات 'ما رأى الراؤون أحسن منهنّ'.^(٧٦) وما إن يدخل دار هاته البنات - يبدو أنّهنّ بنات أحد وزراء بغداد أو جواريه - حتى يسارع ويضع نفسه موضع العبد، ويقوم بخدمة أجملهنّ، لكنّها ترفض، وتثتم له قديحاً من الشراب، وعندما يشربه تصفعه على رقبتة، فيخرج غاضباً، فتتبعه العجوز، وتسنلطفه حتى يعود. ويعود وبشرب، وتجردّه البنات من ثيابه تماماً، وتقول له أجملهنّ: 'إن صبرت على شرطي بلغت مرادك، فقال لها: 'يا سيدي أنا عبك وفي قبضة يدك'.^(٧٧) لقد دخل إلى قصر البنات بعد محفّز جنسي مهمّ، وكان حرّاً حين دخوله، وما إن رأى ثراء النساء وجمالهنّ حتى أحسّ بدونيته، واعتبر نفسه عبداً وخادماً، وأخذ يمارس عبوديته أمام سطوة جمال هاته النساء، ورضي بجميع الشروط المذلّة والمهينة، طمعاً في جسد إحداهنّ. لكنّ المرأة المستنبدة لم تكتف بأنّها فجرت إثارته الشبقية حتى ذروتها، ثمّ أحبطتها بأن حرمتها من وصالها، بل احتقرته وأهانته، وعرّته من ثيابه ورجولته، وأشبعته ضرباً هي وجوارياها.

و لم يكتف الراوي بأن يكمل طقس ملذّات هذه المرأة بكل هذا الإذلال والإهانة لهذا الرجل البسيط، و ينهي الحكاية، و يجعله يخرج من قصر البنات مهاناً قليلاً، ليضمّد جراحه في منزله المتواضع، بل فاجأتنا الحكاية بأنّ طقس ملذّات المرأة لم يكتمل بعد، و لن يكتمل إلّا بتجريس هذا الرجل و فضيحته التي ستظلّ وشماً أديباً على روحه الجريحة، فما كان منها إلّا أن قذفته وسط سوق الجلّادين ببغداد، حيث تنتظره عقوبة أفراد طبقتة وطبقة تجار الجلود من جهة، وعقوبة السلطة السياسية من جهة أخرى. ويبدو أنّها جميعها كانت مستهجنة لأحلام البسطاء في مجتمع بغداد الطبقيّ.

وعلى الرغم من أهمية الأسواق التجارية في مدن ألف ليلة وليلة، وحاجة السكّان الماسّة إليها، تظلّ هناك أسواق أخرى أهمّ منها بالنسبة للأثرياء ورجال السلطة، وهي أسواق الجوّاري، لأنّها أكثر الفضاءات القادرة على إمتاعهم وإثارتهم، وتحقيق مسرّاتهم وملذّاتهم، وهذا ما سنتناوله في الجزء الثاني من هذا البحث في العدد العربي القادم من كلمات.

ISSN 1443-2749

دورية عالمية للكتابة الخلاقية بالإنكليزية والعربية
An International Periodical of English and Arabic Creative Writing

كَلِمَات

Kalimat

Number 13 (English), March 2003
العدد الثالث عشر (إنكليزي)، آذار/مارس 2003

© Kalimat
ABN 57919750443

C O N T E N T S

Snowflakes

- Harriet Ruth Barazi 5
Lest we Forget 6
Al-Sununu 8
Samih Karamy in Syria 9
Australia Day Medal & Letters to Kalimat 10

Dew and Sparks

- Nazih Abu Afash *The Citadel* (translator: Raghid Nahhas) 11

Landmark

- Raghid Nahhas *M.A. Younes: The Seagull of The One and Thousand Nights* 15

Studies

- M. A. Younes *Bathhouses in the Cities of The One Thousand & One Nights* 29

Wavelengths

- Mario Grande *A Map for "Writer's Country"* 37

Timetravel

- Astra Warren *The Long Journey* 44

Poetry

- Margaret Bradstock *Three Poems* 47
J. K. Murphy *A Type of Share-Farming* 50
Charles D'Anastasi *Three Poems* 51
Julie Leibrich *Six Poems* 53
Thomas Shapcott *The Unwanted* 56
Maggie Shapley *Three Poems* 58
Tala Fakhoury *Three Poems* 60

Bathhouses in the Cities of *The Thousand and One Nights*

The bathhouse is considered one of the most important architectural structures in Arab Islamic cities due to its function in providing the means for a Moslem to be clean and pure in preparation for prayer, a religious duty of utmost importance practised five times a day. Furthermore, Moslems are instructed to bathe regularly and also after certain acts such as sexual intercourse or washing the dead.

Bathhouses spread in Islamic cities. Authorities encouraged their establishment and supervised their construction and associated requirements such as water provision and drainage.¹ In some cities such as Basra, permission from the *wali* (governor) was necessary before building a bathhouse.² Most were built next to mosques in Basra,³ as they were in other cities.

Architecturally, a touch of grandeur and elegance characterised these buildings: great entrances, elegant ornaments and the most modern techniques applied. The architecture, however, was not purely Islamic. As in other constructions such as palaces, houses and the domes of mosques, the influence of other cultures, particularly the Roman design with respect to baths, was very clear.⁴

Islamic architects took care in creating an aesthetic space inside bathhouses. They filled them with light and made their ceilings high, their waters fresh and their scents pleasant. The high ceilings helped ease the heat from the vapours. Abul Hussein Mohammed bin Jubair describes in "The Journey of bin Jubair" (circa 1217) that the baths of Baghdad were painted with tar, giving them the look of polished black marble.⁵

A bathhouse generally comprised three chambers: cold, warm and hot. The cold chamber opened to the outer courtyard. The warm chamber was provided with warm water and located between the cold and hot chambers. Bathing took place in the hot

¹ Abdussatar, M. 1988. *The Islamic City*. (in Arabic), Alam al-Marifa 128. The National Council for Culture, Arts and Literature, Kuwait.

² Abu Khalil, S. (Ed.) 1997. *Al-Balaziri* (in Arabic, from the book *Futuh al-Buldan*). Ministry for Culture, Damascus, Syria.

³ Almusawi, M.A. 1982. *Historical Factors for the Creation and Development of Arab Islamic Cities* (in Arabic). Dar ar-Rashid, Ministry for Culture and Information, Baghdad, Iraq.

⁴ *Encyclopaedia of the Pleasure of Knowledge* 1982. Cultural Development (in Arabic), Volume 1, p. 10.

⁵ *The Travels of Ibn Jubair* (in Arabic). Sader Printing House/Beirut Publishing and Printing House 1982.

chamber, provided with hot water. The hot chamber had a dome of medium height with many holes fixed with stained glass that let in the sun's rays to provide a radiant and colourful atmosphere. Hot water flowed from jars to the water basins in the chamber. The hot chamber in some bathhouses contained four basins, a *jirn* (mortar) and a *mahtan* (tub).⁶

Islamic cities had two categories of baths: private and public. The rich and those in authority used private baths or even constructed their own baths inside their palaces. The general public, on the other hand, were not used to bathing in private baths, since their homes were large enough to contain one.⁷

Islamic town authorities ensured the construction of public baths because of their religious function and because not every house could contain a bath, particularly in crowded areas. The large number of bathers meant that public baths brought a fortune to their owners. One owner in Basra boasted: 'My bathhouse earns me one thousand dirhams and much food every day.'⁸

Many bathhouses were denominational. For example, during the Fatimid era (909-1171), some bathhouses were restricted to Moslems, others to Jews and some to Christians.⁹ Reports of the number of bathhouses in a city might sometimes have been exaggerated. Al-Khatib al-Baghdadi (circa 1071) mentioned that Baghdad had five thousand baths during the reign of al-Ma'moon. Other figures for Baghdad indicate that the number could actually have been about two thousand.¹⁰ Damascus had fifteen bathhouses around 1175 and two hundred¹¹ around 1503. Egypt had eight bathhouses in 1286 and 1170 in the year 1441.

Islamic literature contains a number of descriptions of bathhouses. Al-Fadl al-Raqqashi said: 'The bathhouse is a lovely home. It rids you of shabbiness, provides you with cleanliness, aids in the digestion of your food, assists you in sleep, eliminates your anger and helps you reach your desires.'¹²

Someone described a private bathhouse owned by the son of a wazir in Baghdad thus: 'The guide showed me around the bathhouse. I saw its water, windows and silver pipes. Some of the pipes were gold-plated, some took the shape of birds and when water poured out of them, they produced pleasant sounds. Fountains of water poured into

⁶ Ashour, S. 1994. Women and Social Institution in Arab Culture (in Arabic). Dar al-Maaref for Printing and Publishing, Susa, Tunisia.

⁷ Ashour, S. 1980. Social Life in the Islamic City (in Arabic). *Alam al-Fikr* 1

⁸ See reference 2 above.

⁹ Hassan, H. I. Political History of Islam. (in Arabic)

¹⁰ See 7.

¹¹ Ziade, K. 1990. Book review of Ibn al-Mubarrid (in Arabic). *Al-Ijtihad* 2(6): 297.

¹² Darwish, M. A. (Ed.) 1990. Alisfahani: Selected Lectures and Seminars. Ministry for Culture, Damascus, Syria.

marble basins and from the basins into a well-designed pool, and from the pool to a garden. Then he showed me about ten retreats, each one better designed than the last.¹³

The bathhouse in "The Thousand and One Nights" seems to be a small heaven, a space full of joy. This is why it was a mecca for the characters of the story, including kings, ministers, princes, traders, the rich and society's upper hierarchy. It was a place that seemed to compete for prominence with the palace itself, and surpassed it in some cases. Initially, some strict Moslems abstained from frequenting the bathhouse due to its lavish ornament and the presence of pictures and statues. But the bathhouse in "The Nights" is a place for bodily refreshment and relaxation. It is closely associated with daily life, particularly its aspects of joy. Many tales include the bath, which is pictured as both a necessary and an embellishing component of the town.¹⁴ The bathhouse depicted in "The Nights" has many functions. Perhaps the most important is the beautification of males and females in preparation for the first night of sexual rituals. Every bride must enter the bath before her wedding night. In "The Nights" we read: 'Lady Zubaida [wife of Haroun ar-Rashid] sent for the judge and witnesses. They consecrated my marriage to her [the slave], and after that they cooked sweets and good food, and stayed as such for a further ten days, and at the conclusion of twenty days, they took the slave to the bath in preparation for us to go to bed.'

The bath had magical powers to make a woman beautiful, radiant and sexually attractive. This is why servants in "The Nights" took a slave to the bath before taking her as a present to the Sultan in their attempts to gain his favour and avoid his wrath. We read in "The Nights" the words of one slave-owner to a wazir: "Leave her [the slave] in your palace for ten days so that she may rest and get more beautiful. Then let her go to the bath and get washed thoroughly, put on her the best of clothes and take her to the Sultan so that you do not miss your chance." The wazir contemplated the words of the slave-owner and found that he uttered the truth.'

This was also the practice of slave-traders before they exhibited their female slaves for auction. We read in many places how wonderful those women looked after being bathed and dressed in the finest clothes and jewellery, and how everyone who looked at them envied the men who would have them in their beds.

Throughout their long history, bathhouses in Islamic cities gradually developed into specialised beauty centres. A woman would take her clothes off in a chamber next to the bath, then go to the steam room where she was massaged all over. The masseuse then removed unwanted hair using a cream made of yellow arsenic and wax, or sometimes sugar and lemon paste.¹⁵ That women were naked in front of the masseuse

¹³ Almiqri, Ahamad bin Mohammad al-Talmasani. *Nfhul Teeb min Ghosnil Andalus al-Ratib*. Reviewed by M. M. Abdulhamid. Dar al-Kitab al-Arabi, Beirut.

¹⁴ Hammouda, H. 1994. The City of Geography, the City of imagination: Readings in *The Thousand and One Nights* (in Arabic). *Fussoul* 13 (4):179.

¹⁵ Bou Hdayba, A. 1987. Islam and Sex (in Arabic, translated by Hala Ouri). Madboli, Cairo.

As we read in Ibn al-Jawzi's *Women's Jurisdiction*, (circa 1201).

The description of the face as a 'full moon' is not strange, given the skill of the beauticians. They would carefully rub the face of the woman, remove the unwanted hair then start the make-up by whitening the teeth with eggshells or carbon powder. The woman would then chew walnut skin, which smells pleasant, helps to firm the lips and remove it then apply a crimson powder to make the cheeks rosy. A powder mixed with eggwhite, tar and yellow arsenic was then applied to the eyebrows and the eyes were lined with

her. The beast of his sexual hunger was unleashed and he jumped on the woman and raped daughter coming out of the bathhouse. In one tale, a slave called Bakhit saw his master's women coming out of the bathhouse. As a result of men sighting beautiful bodies of those women.

"The Nights" recounts many cases of "rape" as a result of men sighting beautiful bodies of those women. Sexually attractive to waiting justful men who rushed willingly to oblige the eager body. "The Nights" indicates that women coming out of the bath appeared elegant and refreshing warm water, perfumes and the masseurs who brought life into all parts of the men and women. It was a place full of the necessary ingredients for such arousal. The bathhouse in "The Nights" played an important role in sexual arousal for both

betray him. emotionally and physically accepted by his wife so that she loves him and will never herself and her body for him immaculately. A man must reciprocate in order to be love. An obedient loving wife must satisfy her husband's sexual ambitions and prepare consensus in Islamic opinion about the importance of "preparing" lovers for the act of associated with these activities provoked controversy. Despite this, there was a removal were dominant in the male bathing rituals. As with the women, the nudity

Indeed, baths were centres of beauty for men as well. Massaging, cleaning and hair put him on a horse and bring him to the palace.

the chamberlain to take him to the bath, then put on him the best of the royal clothes. coincidence, when she met her lover Ali Shar again after many years: "Then she ordered women of influence ordered their servants to take their lovers to the bath before making love. We read about Zumrud, an ex-slave who became a queen by some magical

Sexual rituals meant that men also had to use the bath. In the tales of "The Nights" when they entered the bath.¹⁶

(despite the fact that the masseuse was herself a woman) led many Islamic scholars to consider the bath a centre of corruption. For example, Jaludin Abdulrahman as-Soyuti (born 1505) stated that baths were not recommended for women. Others quoted sayings attributed to the prophet Muhammad in which he urged people to cover themselves

Isfahani kohl. The final touches were made with a scented powder used to make special lines or spots on the eyelids, the side or middle of the nose, and often also scattered over the cheeks.¹⁷

The design of the bathhouse brought to the minds of the bathers, both women and men, erotic images and dreams. As soon as one enters, 'one floats through its inclined passage towards the increased warmth of the rooms, which awakens a world of dreams as one is gradually isolated from the outside world and receives bouts of cold and hot steam.'

People of influence added more sexual incentives to this serene place with the aim of augmenting the sexual appetite of bathers. These could include naked figures elegantly engraved on the floor and walls of the bath. Altalmasani¹⁸ describes one retreat in a bath that belonged to the son of a wazir in Baghdad: 'One of the wonders of this private chamber is that its four walls are finely polished as if they are mirrors. One can see the reflection of one's body in any of these walls. And I saw a floor adorned with mosaics made from red, yellow, green and golden glass stones forming breathtaking erotic pictures of different shape and colour combinations. The guide told me that these formations were made for his master to excite his sexual urges, making him hurry to make love to the one he desires. He usually brings his favourite women to this private chamber so that his act of love is enhanced by the surrounding images of intercourse, kissing and touching between lovers.'

Bathhouses in "The Nights" served as an important forum for the beautiful women who frequented them, because they were places where women could freely exhibit their beauty to other women. News of a beautiful woman in the bath was quickly spread through the town, making every important woman want to see her. A woman called Manarussana (the light of the sublime) and wife of the jeweller Hassan al-Basri was once spotted in a bathhouse: '...when she entered, she took off her clothes and all the women looked at her in amazement at her beauty and sang the praises of Allah for such an immaculate creation. All the women coming to bathe entered to have a look. Her fame spread in the city and women crowded around her, making the bathhouse difficult to enter due to the large number of women gathered there.' Such was the excitement, the news arrived in the palace of Haroun ar-Rashid via Tuhfa al-Awwada, the slave of Lady Zubaida (wife of ar-Rashid), who sent after the lady. When Lady Zubaida saw Manarussana, she could not help but take her in her arms and express her supreme admiration, an unusual stand by the wife of the supreme ruler, who does not normally greet commoners or even important people in this manner.

The political authorities in "The Nights" spread their spies through all the bathhouses to get information about what was going on inside and to search for wanted

¹⁷ See 15.

¹⁸ See 13.

people who might have distinguishing body features. In one story, a king is ill with a dangerous disease and not one of the kingdom's doctors is able to cure him. Astrologers affirm that the only one who can cure him is a man with a black beard who can only be found in the bathhouse.

The bathhouse plays an important role in the plot and narration of "The Nights" for example, the story about Manarussana moves from the scenes in the bathhouse to scenes in the palace in Baghdad, and later we see Manarussana travel to her country of origin, the Islands of *Waq Waq*. Her husband then follows in search of her, opening the door to many adventures, including tales of wars among magicians and fairies on strange islands.

In some stories, the bathhouse is a place of celebration after recovery from illness. It is also a place where people go to forget their problems and regain their psychological and social balance. It is entered after the loss of a loved one to celebrate a reunion with friends once separated by evil spirits or circumstances. Those struck by disaster relax in the bathhouse after strong winds have torn the sails of their ships and sunk their goods. To them it is a space of contemplation where they forget about financial catastrophes.

During his seventh journey, Sindbad is thrown into a great city after his ship is wrecked. The inhabitants pick him up and take him to the bathhouse. Sindbad fell in their hands like a dead man because of fear, hunger and lack of sleep. An old man received me, welcomed me and put on me some beautiful clothes that covered my nakedness. He then led me to the bath and brought me drinks and perfumes.'

For women, the bathhouse was a free and beautiful place because it released them from the strains of their husband's houses, routines, rules and norms and gave them access to the market place with its commercial clatter, social noise and open spaces. Women had to pass by different markets on their way to the bathhouses, which were located in the middle of the souks, often next to mosques. Women felt freer in the bathhouse and let their hair loose and relaxed, indulging in a multitude of dreams. Men considered even this limited freedom dangerous and forbade their women to frequent the bathhouses.

A good bath met certain conditions. A doctor in the presence of Haroun al-Rashid examined a slave about which bath was best. She replied: 'A bath with fresh air, a large space and pleasant air...' There is also mention of the danger of entering the bathhouse too soon after a heavy meal, or leaving the bathhouse suddenly without the gradual movement through chambers to temperatures nearer to the outside temperature.

Many historians believe that it was the bathhouses that enabled the citizens of Islamic cities to find pleasure and joy despite the misery of their lives and the tyranny of their rulers.¹⁹

محمد عبد الرحمن يونس



¹⁹ Such as al-Tijani (circa 1309) in his book *Tuhfat al-Arous wa Mutaatu an-Nufouss*, (in Arabic) edited by J. Attieh, Dar Riad Reiss, London 1992.